أدب الرثاء الحلي قي القرن التاسع عشر
(دراسة موازنة)

أ.د محمد حسن علي مجيد
الكلية الأسلامية الجامعة/ في النجف الأشرف

الرثاء تعبير عن حالة نفسية تصيب الشاعر في مناسبة محزنة، فتثير فيه كوامن شجونه ، وتدفعه الى البكاء او الأسف او الجزع. وان هذا الأسف و البكاء يحتاجان الى الإعراب عنهما بشكل من الأشكال فيكون الرثاء احد أساليب تصريف ذلك الحزن، أو كأن الشاعر يعطي برثائه المبرر الذي يدفعه لـذلك الحزن أو الجزع، مما تعرض له من خسارة ونكد بسبب موت الأحبة أو الأهل أو الرمـوز الدينيـة والاجتماعية وفقدانهم وقد يصب في مجرى الرثاء أو تدفع إليه روافد أخرى غير الموت، والفقـدان، منها ما يتعرض له الإنسان من شعور بالظلم أو الحرمان أو الاضطهاد، فتكـون مناسـبات المـوت والعزاء مناسبات للتفريغ عن الهموم والآهات الحبيسة والمشاعر المضطربة فينفس عن طريقها تلـك الهموم والآلام .. ومن هذا النوع ما وجدناه أيضا في الشعر الديني ومراثي الشـعراء العـراقيين لآل البيت حيث ينفس الشعراء من خلالها عن آلامهم وإحزانهم وعبراتهم المكبوتة، وعبروا عن طريقهـا عما كانوا يعانونه من ضيق وعنف وظلم وحرمان، وافرغوا آلامهم في قالب باك من حزن تاريخي أو من حزن جديد قائم ... ويؤلف (شعر الرثاء الحلي) (في القرن التاسع عشر) الصورة الصادقة لهـذا النوع من الفن الأدبي مما لم يكن له نظير في الكمية والنضج في أية مدينة عراقية أخرى .

فقد كانت الحلة في هذا القرن مدينة منكمشة على نفسها لا تثق بالولاة مجتنبة ما يتعلق بالحكام والموظفين الذين اتسم سلوك أكثرهم بالابتزاز والجور ، وإبعاد أبنائها عن العمل في دوائـر الدولـة، فقاطعهم أهلها واجتنبوا دواوين الحكومة ودوائرها، عدا ما تجبرهم عليه الضرورة،(١) وإنها إذ بقيت في انكماشها فإنها شعرت بغبن شديد وضيم ثقيل، لكنه لم تستطع إن تعلن نفسها بوضوح لشدة بطـش السلطة (فاتجهت إلى الرثاء) تستعين به على الصبر ، فاتخذت منه متنفسا للتعبير عمـا يجـيش فـي صدرها من نقمة أو سخط أو ثورة ويبدو ــ بعد هذا ــ إن المدينة حين الفت (الرثاء) أو اتخذت منـه سبيلا للتخفيف والعزاء واستغلاله في أية مناسبة حرينة، فأن ذلك اكسبها ــ فيما بعد ــ اتقانا لهذا الفن، وان تكرار القول فيه بعشرات القصائد، جعلها تبلغ فيه درجات من الجودة والإتقان والنضج وصـدق التعبير ما لم تبلغه فيه أية مدينة عراقية أخرى، ولعل في ما يضاف إلى هذا قوة العلاقات الاجتماعية التي كانت تربط بين أبناء المدينة وكثرة مجالس العزاء الديني والاجتماعي، وتنافس الشعراء فيما بينهم

للاستحواذ على إعجاب الناس واستحسانهم في الإجادة بهذا الفن فضلا عن حبهم لآل البيت والشعور بالمرارة لما لحق بهم من ظلم وضيم، أثراً في هذه الكثرة وهذا النضج، مما لا نجد له نظيراً في أية مدينة عراقية أخرى غيرها كبغداد والنجف والموصل بل لدى شعراء العراق كافة في هذا العصر ..... إن مراثي الحليين في هذه المرحلة وان كان الكثير منها تقليدية في ألفاظها وسماتها، إلا إن في الكثير منها صوراً مؤثرة وأصلية طريفة كما فيها الكثير من صدق التعبير وقوة العاطفة، المنبعث عن إحساس بالظلم والتطلع إلى العدل، وان هذه الإشعار من جانب آخر هي اصدق أشعار الحليين عاطفة وأجودها مقالاً، وأكثرها أصالة، واقلها تكلفاً قياساً إلى الإغراض الأخرى في أشعارهم من مدح أو غزل أو سياسة أو وصف، لأنها اقترنت بالعقيدة، ومست الجانب الروحي في نفوسهم، ولأنها كانت تصويراً لواقع كالح وأوضاع سياسية واقتصادية قاسية ورد فعل للسياسة المتعسفة التي سلكها الحكام حينذاك، وهذا ما يفسر إجادتهم في (فن الرثاء) .

وفي أول إشارة إلى تفوق الحلة في شعر الرثاء ونضجه ظهور شعراء كثيرين فيها عرفوا بإتقان هذا الفن وإجادتهم فيه، يتقدمهم الشاعر السيد حيدر الحلي (ت ١٨٨٧م) الذي كان فارس حلبة شعر الرثاء العراقي في القرن التاسع عشر غير منازع بإجماع النقاد والباحثين والمتخصصين في الأدب العراقي في هذه الحقبة[٢]، فهو شاعر مرهف الحس رقيق العاطفة، عاش في جو من الكبت والضيق، [٣] فلم يجد ما يخفف به عن ضيقه خيراً من استدرار الدموع واستعادة حوادث الطف، كما لم يكن السيد حيدر هو شاعر الرثاء الوحيد المجيد في الحلة، إنما كان هناك رهط كبير من الشعراء المجيدين فيها، وهم وان لم يبلغوا مرتبة السيد حيدر، إلا إن لكثير منهم شعراً وفيراً جيداً ضارع الكثير منه شعر السيد حيدر في جودة سبك وحسن أسلوب ولطف معان، وان كان حيدر هو إمام هذا الفن في العراق في هذه الحقبة، [٤]

ويكاد يجمع الباحثون على إن هذا الشاعر قد أجاد فيه إجادة تامة حتى قيل انه اشعر فن رثى الحسين (ع)[٥] ومعنى هذا تفضيله في هذا الباب على الكميت والشريفين الرضي والمرتضى ومهيار وكشاجم وغيرهم ممن عرفوا بالإجادة في رثاء الحسين، وان هذا الحكم على ما قد يبدو فيه من المبالغة فهو يدل ــ من جانب آخر ــ على إعجاب معاصريه ومن تلاهم والنقاد، بأسلوبه في الرثاء،[٦] وهذا يمنح رأينا قوة في تفوق الحلة في شعر الرثاء، وإنها أبرزت المدن العراقية الأخرى في هذا الفن الشعري، ولو استعرضنا دواوين شعراء الحلة في هذا العصر لوجدنا إن (الرثاء) يشغل مساحات واسعة فيها، وانه يؤلف الغرض الرئيس من إغراضها، فلا يخلو ديوان واحد من باب المراثي وفي بعضها من بابين في الرثاء (الديني والاجتماعي) ..

ولإعطاء فكرة تطبيقية عن تمكن شعراء الحلة في (فن الرثاء)، وتفوقهم فيه على غيرهم، نورد هنا أمثلة قليلة من مراثيهم الاجتماعية والدينية، وانتبين ما فيها من صدق وأصالة ونضج واقتدار، ولغرض (الموازنة) أيضاً، إذا ما قورنت برثاء المدن العراقية الأخرى .. فمن ذلك مثلا رثاء حيدر الحلي لعمه السيد مهدي السيد داود حين أصيب بفقده سنة (١٢٨٩هـ) في قصيدة تتميز بصدق اللهجة وحرارة العاطفة وشدة الحزن الذي بلغ حد اليأس والجزع، كما نحس بروح الشاعر في ثنايا أبياتها ماتاعة ثاكلة حتى ليتمنى إن يأخذه سيف المنية، حين ذهب الزمان بكل آماله وسلبه عدته وعديدة فبقى يصحب الزمان بلا شيء فينشج هذا النشيج الحزين، ويئن هذا الأنين المتصل، لنسمعه يقول في قسم من القصيدة :ـــ

أظبا الردى انصلتي وهاكِ وريدي ذهَبَ الزمانٌ بعدتي وعديدي
نشبت سهام النائبات بمقتلي فلحفظ ماذا اتقي عن جيدي
ماذا الذي يا دهرُ توعدني به أو بعدُ عندك موضعٌ لمزيدِ (٧)

والقصيدة طويلة ولوعة الشاعر فيها ظاهرة وجزعه بين، فهي تصور بوضوح رجلاً أصيب بعزيز فأده المصاب وعظم الكارثة وفادحة الخطب، فصرخ ألما وناح جزعا، فضلا عما في القصيدة من حسن السبك وصدق العاطفة ومتانة اللغة والبعد عن الصنعة والتكلف والزخرفة والتهويل الذي كان أسلوب العصر حين ذاك ..

ومثلما رثى السيد حيدر عمه السيد مهدي، فقد رثى الشاعر عبد المطلب الحلي عمه السيد حيدر حين اصيب بفقده سنة (١٣٠٤هـ/١٨٨٧م) في قصيدة طويلة تضارع قصيدة السيد حيدر قوة عبارة وحرارة عاطفة وحسن سبك وصفاء لغة وروعة ديباجة، إلا أنها تميزت عنها ببعدها عن الجزع واليأس، إنما اتسامها بالكبرياء والجلد والتماسك وعدم السماح بشماتة الزمان، حيث قال في قصيدة رائعة ، منها قوله :

أهاشم قلَ بأن تجزعي وان تقرعي السنَ بالإصابعِ
أصاب عميدَكِ ريبُ المنون وساءك للضيم إن تضرعي
وجشمَ عزكِ ذلاً وقال على لهوات الهوان اهجمي
هدأتِ، وثارك عند الزمان فلا قر جنبٌ على مضجعِ

: ثم يخاطب عمه بقوله :

أليث قريش، قريش البطاحِ وبيضةِ عزهم الامنعِ
وسعَد العشيرةِ من هاشمٍ ومقدام فيلقها المفزعِ
عهدتكِ والحتف يا حتفهُ متى ذكروك له يهلعِ

ومن عجبٍ كيف كان انتحـــاك ومن فرقٍ منك لم يرجــــــــــــعِ
فجدتَ بنفسك مستحضـــــــراً صنعَ ندىً قطٌ لم يصنـــــــــــعِ
أم اخترتَ داراً غدت في اتساعٍ شبيهِ فضا صدرك الأوســـــعِ
وإلا فموتكَ أقـــــــــوى دليلٍ على قدرةِ القاهرِ المـــــــــــبدعِ (٨)

والقصيدة طويلة، ويخيلُ إلي أني لا أحتاج ألى تعليق على هذا الرثاء النفيس وما فيه من صور أخاذة ومعان رقيقة واحاسيس ملتهبه، فضلا عما فيها من قوة سبك وصفاء ديباجة وجمال لغة وعلـــو قافية، وشدة حزن ....

ومن أجل إن نقف على الوجه الآخر من (فن الرثاء الحلي) الذي تميز به شعراء الحلة دون غيرهم من شعراء العراق، وقدرتهم الفائقة في هذا الضرب من الفن، لابد أن نذكر نموذجا من (الرثاء الديني) الذي ضرب به الحليون بسهم وافر، لم يبلغ مداه الشعر العراقي كله. وأصابوا فيه نضجا لـــم يتوافر لدى غيرهم من شعراء العراق قاطبة في هذا العصر .

فهذه إحدى قصائد السيد حيدر الحلي في رثاء الإمام الحسين (ع) في موقفه يوم الطف ، التي سلك فيها سبيل الزهو والفخار ، لا طريق العويل والانهيار، مبتعدا عن الصراخ المهين والعويل الذليل متبعا سبل المباهاةِ لا أسلوب البكاء والحسرات، وظهر فيها الحسينُ منتصراً لا منكسراً .

لننظر لهذه اللوحة الفنية المبهرة من ادب الرثاء الديني الحلي، مما قل نظيره في شعر الرثـــاء العراقي، حين ساومه جيش البغي الأموي بين إن يذعن للطغاة وينزل على حكمهم أو الموت الزؤام إلا انه اعتصم بالإباء، واتسم بالكبرياء، وامتنع عن الذلة والخضوع . قال في قسم منها :

وسامته يركبُ إحدى اثنيـــــــــن وقد صرت الحرب اسنانهـــــا
فإما يُرى مذعناً او تمـــــــــوتُ نفوسٌ أبى العز خذلانهـــــا
فقال لها : اعتصمي بالإبـــــــاءِ فنفس الأبي وما صانهـــــــا
رأى القتلَ صبراً شعار الكــــــرام وفخرا يزين لها شانـــــــــها

إلى إن يقول :

فشمر للحرب عن معـــــــــركٍ به عرك الموت فرسانهـــــــــا
وأضرمها اعنـــــان السمــــــاء حمراء تلفح اعنانهــــــــــــا
ركين، وللأرض تحت الكمـــاةِ رجيف يزلزلُ ثهلانهـــــــــا
أقرُ على الأرض من ظهرهـــا إذا ململ الرعُب أقرانهـــــا
تزيدُ الطلاقةُ في وجهــــــــه إذا غير الخوفُ ألوانهـــــا

حتى يصل الى ساعة الشهادة، حين يستعد لمواجهة الموت فيترجل عن ظهر جـواده لملاقـاة الأجل المحتوم، وهو فرح بالشهادة فَرَحَ العاشق بفتاته،... لننظر الى بقية اللوحة وما فيها من صورة رائعة التي رسمها السيد حيدر بريشة الفنان المقتدر

حين يقول :

ولما قضى للعـــــلى حقها وشيد بالسيف بنيانهـــــا
ترجل للموت عن سابـــــق له أخلت الخيل ميدانهـــا
ثوى زائد البشر في صرعـــة له حبب العز لقيانهـــــا
كأن المنية كانـــــــت لدية فتاة تواصل خلصانهـــــا

وحين يصل إلى هذه المرحلة من رسم الصورة، يتصاعد لديه الحماس فيهتف عاليا ويصـرخ بصوت حاد :

اتقضى فداك حشا العلميـن خميص الحشاشة ظمانهـا
الست زعيم بني غالـــب ومطعام فهر ومطعانهـــا
فلم أغفلت بك أتارهـــــا وليست تعاجل إمكانهـــا
وهذي الأسنة والبـارقـات أطالت يد المطل هجرانها[٩]
وتلك المطهمة المقربـــات تجر على الأرض أرسانهـا

(هذه هي الحلة في رثائها)

فأين (الرثاء) في غيرها من رثاء الحلة؟ ...

لو حاولنا استعراض شعر الرثاء في (النجف) وهي العاصمة الدينية للعراق ولغير العراق في تلك الحقبة، لما وجدنا فيه من قوة السبك أو صدق التعبير أو حسن التصوير أو حرارة العاطفـة مـا وجدناه في رثاء الحلة، فضلا عن قلة الرثاء في دواوين شعراء النجف قلة ظاهرة، على إننـا لانعـدم وجود أمثلة جيدة منه فيها، لكنها لا تبلغ درجة الجودة التي بلغتها في مراثي الحليين، ولا ترقى إلـى حسن تصويرها أو جمال لغتها أو صدق عاطفتها ..(وللموازنة) نود أن نلقي ضوءا على بعض قصائد الرثاء النجفي التي قالها الشعراء (الكبار) منهم فيمن أصيبوا بعزيز أو فقدوا قريبا ورثوهم، لنرى هل تبلغ قصائدهم فيه ــ شكلا ومضمونا أو صورة أو عاطفة ما بلغته مراثي الحليين في أهليهم، أو فـي مراثيهم الدينية .. فمثلاــ فكما رثى كل من حيدر الحلي وعبد المطلب الحلي عمه، فقد رثى الشـاعر النجفي السيد (ابراهيم بحر العلوم) أباه، وهو من كبار شعراء النجف، في قصيدة تفتقر إلى الكثير من الشعر بالأسى أو الحزن واللوعة الواجب توفرها في (رثاء الأحبة) وتفتقـد الإحسـاس الصـادق بـالألم في حـال فقـدان الإبـاء والأبناء ورثائهم، فان هذا الشاعر (الكبير)، أراد أن يرشو الـدهر

ولكنه قال: (لو كان يُرشى) ليبقي له أباه، لكنه خشي من مفاتحته بموضوع الرشوة لان الدهر كان قد طرح حبائله على الأرض، فإذا هي تسير كالأفاعي ــ تعض عضاضاً وتنهش نهشاً ــ كذا ــ لنسمعه يقول في رثاء أبيه :

رشيتك يا دهر لو كنت ترشى واخشاك والدهر يرجى ويخش
طرحت الحبائل مبثوثة على الأرض تسعى افاعي رقشا
رواعش تهتز مثل الصلال تعض عضاضا وتنهش نهشا(١٠)

ويبدو أن الشاعر في هذه المرثية لم يكن همه في رثاء أبيه بقدر محاولته صناعة مقطوعة سيئة الزخرفة، وليس فيها ما يشعر بحزن ابن على ابيه، فقد جمع اربعة من حروف (الشين) في البيت الاول وذكرنا في البيت الثاني بقصةموسى ــ عليه السلام ــ مع السحرة حين القوا حبالهم (فأذا هي أفاعي تسعى)، وفي البيت الثالث صورة تلك الأفاعي وهي (تعض عضاضاً وتنهش نهشاً) في مقابلات ثقيلة وممجوجة وهكذا..

كما رثى شاعر نجفي كبير آخر أباه هو الشاعر (موسى الطالقاني) بقصيدة لا تمتاز عن قصيدة السيد بحر العلوم بغير ضحالة العاطفة وسوء السبك ورداءة التعبير ... فهو يقول في(رثاء ابيه) انه سيبكي دما حين تجف الدموع، وانه سينعاه الدهر كله حتى تشفق عليه الخطوب، ثم يقول أن البدر لم يعد يشرق بعد موت أبيه، وان الفضاء على سعته قد ضاق بالناس، وانه يراهم كلهم قد أطالوا النواح على أبيه (في الشوارع)، هكذا رثى السيد الطالقاني أباه حين قال :

سأبكي، وان كان البكا غير نافع دماءً إذا جفت دمو ع مدامعي
وأنعاك طول الدهر حتى تلين لي قلوب خطوب لا تزال قوارعي
رحلت، فلا بدر السماء بمسطر علينا ولا رحب الفضاء بواسع
اقلب طرفي في الأنام فلا أرى سوى من يطيل النوح في كل الشوارع(١١)

أشهد إني فتشت عن العاطفة في القصيدة كلها، فلم أجد لها أثراً ... وللشاعر النجفي الكبير (محسن الخضري) ثلاث قصائد فقط من الرثاء الديني حواها ديوانه الذي يقع في ١٩٦ صفحة، أفضلها قصيدته التي رثى بها شهداء الطف بكربلاء إلا أننا إذا قارناها شعرنا بانحسار العاطفة والحزن انحسارا تاما. لنسمعه يقول في رثائهم :-

أين الذين تبواؤا عرصاتها غُرفاً تبوأت الشام ظلالها
قذفت بهم نحو العراق فأصبحت قفرا وقد طمس البلى أطلالها
بأبي الذي ما انحاز نحو مفازةٍ إلا ونازعه (ابن سعد) آلها

حتى إذا اقتحموا الفرات وأقبلت خيلُ (ابن هند) تستحث رجالهـــا
صرت رحى الحرب الزؤام تديرها عُصبٌ إذا مر الطعان حلالهـــا(١٢)

ولا أرى بي حاجة لإتيان المزيد من هذه المرثية، فكلها على هذا النسق من برود الإحســاس وانحسار العاطفة فضلا عن التعقيد اللغوي فيها.. على أن خير أمثلة الرثاء النجفي ما جاء لدى الشاعر محمد سعيد الحبوبي في رثاء آل القزويني ورثاء السيد حيدر الحلي، بسبب علاقتــه الحميمــة بــآل القزويني وصديقه السيد حيدر، وبسبب مقدرة الحبوبي الشعرية العالية من جهة اخرى... (وللمثال)ـــ أجتزيء بعض الأبيات من مرثية الحبوبي لصديقه وزميله السيد حيدر، وهي من جيد شعره في الرثاء، بل أجود الرثاء النجفي في هذه الحقبة، ولنرى مكانها إلى جانــب مراثــي شــعراء الحلــة لاهلــيهم وأصدقائهم ... قال في قسم منها :-

أبن لي نجوى لو تطيق بـــــــيانا الستَ لعدنان فماً ولسانـــــــا
وابلغ خطابا فالبلاغة سلمـــــــت لكفيك منها مقوداً وعنانـــــــا
وجُل يا جواد السبق في عرصاتهـــا فهاشمُ سامت للسباق رهانـــا
صُرعتَ، وما خلت الردى يصرع الردى لعمري، وما يفني الزمان زمانا
فيا صارماً لآخى من الموت صارمـــاً بلى، وسنانً ذاق منه سنانـــا
رماك الردى فينا بماضي سهامـــــه فأصمى الأحشاء الكمال جنانـــا(١٣)

هذا اجود رثاء قرأته في شعر النجف، فهو حسن السبك، جميــل العبــارة، إلا انــه يفتقــد العاطفة المتأججة واللوعة المستعرة، وإنما يظهر السيد الحبوبي هنا انه كان يؤدي واجــب الصــداقة وحق المعرفة، فهو لم يصدر عن نفس ثاكلة ومشاعر محزنة وأحبة عزيزة مفقودة، إنما هــو أســف، مقرون بأسى شفيف، والقصيدة بالتالي تفتقد الحزن العميق التي استقرت بهما قصيدتا حيــدر، وعبــد المطلب الحليين فيما مر بنا، ولم تبلغ مبلغهما، بل إننا نضيف هنا إن ديوان السيد الحبوبي الذي يقع في ٦٩٠ صفحة قد خلا تماما من أية قصيدة من شعر الرثاء الديني، بل لم يحوِ بيتــاً واحــداً فــي هــذا المضمار على مكانة السيد الحبوبي الدينية العالية فضلا عن قلة قصائد الرثاء بكل أشكالها فيه ..

إذن فمما مر بنا من شعر الرثاء في الحلة والنجف نستطيع القول إن النجف لــم تســتطع إن تباري الحلة في (موضوعات الرثاء)، إنما كان زمام هذا الفن بيد الحليين دون النجف في هذا القرن ..

إما (بغداد) فقد تخلفت كثيراً عن الحلة في (فن الرثاء) أيضا، ولا يصعب علينا تخلــف رثــاء بغداد عن رثاء الحلة، فقد كان للشعراء في بغداد ما يغنيهم عن الرثاء والبكاء، وذلك من اشتراك فــي الحياة العامة واتصال بالحكام والوجهاء ومن حضور مجالس الأنس واللهو التي كانــت تزخــر بهــا منتديات بغداد لذا إذا أصيب احدهم بعزيز جاءت مراثيهم باردة متكلفة قليلة العاطفة ...

ولعل في مرثية الشاعر عبد الغفار الأخرس- وهو من كبار شعراء بغداد حينذاك- في رثـــاء صديقه مفتي بغداد الشيخ عبد الغني جميل ما يؤكد رأينا في تخلف بغداد عن الحلة في الرثاء ... قال الأخرس :

سأبكي وأستبكي عليك المعاليا وأسكب من عيني الدموع الجواريا
وأصلي لظى نار الأسى كلما أرى مكانك ما قد كان بالأسى خاليـــا
وان لم يكن يجدي البكاء ولم يعد علي الأسى من ذلك العهد ماضيا
ومن حق مثلي إن يذوب حشاشة ومن الحزن أو يبكي الديار الخواليا
خلت من (أبي محمود) دار عهدتها تضيء به إرجاؤها والنواديا (١٤)

ان هذا النص- كما نراه امامنا- مليء بالتكلف ركيك العبارة، وهو أقرب الى النظم منه الى الشعر والحزن ونحن نعرف ان الأخرس شاعر ذو مكانة مرموقة بين شعراء عصره، وأنـــه رقيـــق، حتى لقبه الدكتور، محمد مهدي البصير بـــ (ابو نواس القرن التاسع عشر)، كما ان مكانـــة المرثـــي (الشيخ عبد الغني) كانت كبيرة في نفسه لقوة العلاقة والصداقة بينهما، ومع ذلك فقد جاء رثـــاؤه لـــه بارداً قليل العاطفة لا يشعر بالحزن والاسى والفجيعة، اما الشاعر البغدادي الكبير الاخر (الشيخ صالح التميمي) فقد رثى الحسين(ع) بقصيدة لا تتعدى الوصف والرصف، حين قال :

سلوا كربلا عن مدمعي وانهماله وتلويح قلبي بالاسى واشتعالـــه
وإلا فلا تستغربوا عبرةً جـــــرت لطرف تجافي عن نظير اكتماله
فما إنا بالباكي لاطلال (رامـــــةٍ) ولا مغرم في (عالج) ورمالـــه

هذا رثاء شاعر كبير للإمام الحسين من شعراء بغداد ... وللتوثيق نورد هنا أبياتا فـــي رثـــاء الحسين لشاعر بغدادي كبير أخر كان محبا لآل البيت وألف ديوانا كاملا في مدحهم ورثائهـــم ســـماه (الباقيات الصالحات) هو الشاعر المشهور (عبد الباقي العمري) إلا ان اياً من قصائده فيهم لم يسر فيها روح الشعر ورواؤه على الرغم من بعض العاطفة التي كانت تلتمع في ثنايا بعضـــهما، وهـــي فـــي الغالب: ضعيفة النسج، ركيكة العبارة، باهتة العاطفة، تثقلها الزخرفة والتعقيد اللفظي، مما لا يدل على قدرة له في هذا الفن أو تمكن منه أو إجادة فيه، لنسمع -لغرض المثال- قوله يرثي الإمام الحسين في واحدة من قصائده المشهورة – قال في قسم منها:

قضى نحبه في كربلاء ابن حاشـــر ولن ينقضي نحبي عليه إلى الحشر
قضى نحبه في يوم عاشور قد غدت عليه العقول العشر تلطم بالعشـــــر
قضى نحبه في الطف من فوقه طفا نجيع كسا الآفاق بالحلل الحمـــــــرِ
قضى نحبه في حائر فتحيـــــــرت دموع بني الدنيا على وجنة الدهر(١٦)

ولا أراني بحاجة إلى التعليق على هذا الرثاء الباهت، وما الأبيات من تفكك وصنعة وثقل وتكلف وتكرار ثقيل، أذهبَ برواء الشعر، وعاطفته، مع إني لا اشك بحب الشاعر العمري لآل البيت، إلا أنها قلة في إتقان هذا الفن...

وهكذا لم نجد في (رثاء بغداد) ما وجدناه في رثاء الحلة من عمق في المشاعر ودقة في التصوير وصدق في التعبير وحسن في السبك وقوة في الأداء، وكثرة في الشعر، مثلما رأينا في رثاء النجف .

إما رثاء (الموصل) فقد قل حتى يصعب علينا الحصول على أمثلة جيدة منه، سواء في الرثاء الديني أو الرثاء الاجتماعي، وان مصادر شعر الموصل بخلت بأمثلة منه إلا النزر اليسير، وان هذا النزر لا يستحق التسجيل لأنه تكرار الكلام وتعداد الصفات والتذكير بمآثر الفقيد وحسن سيرته، ولعلهم استعاضوا عن رثاء الاهل والاصدقاء بالشعر الديني وبمدح رسول الله(ص) والتغني بفضائله، والإكثار من المدائح النبوية، ونظم كثير في شعر التصوف، بسبب ما عرف عنهم من توجه للدين وحبهم لرسول الله وكثرة شعراء المتصوفة فيهم ... ومع ذلك (وللموازنة) أيضا نذكر هنا مقطعا من قصيدة من (الرثاء الديني) للشاعر(حسن عبد البقي الموصلي) وهو من أفضل رثاء الموصل أو من رثائهم الجيد، قال (الموصلي) في رثاء الحسين(ع) :

يوم قتل الحسين كيف استقرت هذه الأرض بل وسبع الطباق
أيها الأرض هل بقي لكِ عين ودماء الحسين بالاهراق
كيف لا تنسف الشوامخ نسفا ويحن الوجود للامحاق[١٧]

ولا شك في إننا نلحظ التكلف الشديد في هذا النظم والمبالغة المفرطة وتخلخل في النسج وتعقيد في الألفاظ، مما لا يدل على قدرة في النظم بهذا الفن أو وجود عاطفة ملتاعة أو حسن في التصوير .

وهكذا نجد إن رثاء الموصل لا يرقى إلى (رثاء الحلة) أو ينافسه في كثرة أو نضج أو تصوير أو عاطفة أو خيال ...

ومما تقدم من رثاء النجف وبغداد والموصل ونستطيع إن نقرر إن مدينة الحلة قد اختصت بالرثاء وبزت المدن العراقية الأخرى في شعر البكاء، وان هذا الفن كان (حلياً) في هذه الحقبة لأنه كان وسيلتها في التنفيس والتخفيف عن الكبت السياسي والحرمان الاجتماعي، وحرمانهم من المشاركة في الحياة العامة وإبعاد إبنائهم عن العمل في دوائر الدولة، وبما لحق بهم من ظلم وجور، فاتخذت الرثاء أسلوباً يعينهم على الصبر والسلوان .

هوامش البحث ومصادره :-

١. انظر مجلة المؤرخ العربي- العدد/٢٠ لسنة ١٩٨١ / ص ٢٦٢ مقال (د.محمد حسن علي مجيد)

٢. نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر .

الدكتور محمد مهدي البصرة- مط المعارف- بغداد ١٩٦٤/ ص ١

٣. ديوان السيد حيدر الحلي- المقدمة ج١/١٢ المطبعة الحيدرية النجف ١٩٥٠

٤. نهضة العراق الأدبية- ص ٦٠

٥. السيد حيدر الحلي- رسالة ماجستير- احلام فاضل عبود- كلية الآداب-جامعة بغداد /١٩٧٦ - ص١٧٣

٦. بلغ من تأثير الرثاء السيد حيدر في سامعي رثائه، أن احد اعيان المدينة قال له بعد سماعه مرثية له في احد وجهاء المدينة لبلاغة التعبير وقوة التأثير ان قال له (ان رثاءك يحبب لنا الموت) – نهضة العراق الأدبية / ص٤٣

٧. ديوان حيدر الحلي ٢/٨٧

٨. ديوان السيد حيدر الحلي- ط بوبي سنة ١٣٣٢هـ /ص٢١

٩. ديوان السيد حيدر الحلي- ج١/١٠٩-١١١

١٠.ديوان الطباطبائي – مط العرفان- صيدا- لبنان ١٣٣٢هـ

١١.ديوان موسى الطالقاني- مط الغري- النجف ١٩٥٧ ص٨٥-٨٦

١٢.ديوان محسن الخضري- مط الاهلية- النجف١٩٤٧ ص٢٣

١٣.ديوان السيد محمد الحبوبي- بغداد ١٩٨٠ ص٤٦٥

١٤.الطراز الانفس في شعر الأخرس- ط استانبول ١٣٠٤هـ ص٤٦٢-٤٦٣

١٥.ديوان صالح التميمي- ط النجف ١٩٤٨ ص١٠٣

١٦.الترياق الفارقي –مط النعمان- النجف ١٩٦٤ ص١١٣

١٧.ديوان حسن عبد الباقي البزاز- القاهرة- المطبعة الشرقية سنة ١٢١٥هـ – ص ٢٢